الفصل العاشر

بلاط الملك في مكة

على سبيل المقارنة فإن الطائف ـ كما يقال دائمًا ـ هي جنة الصحراء، وهذا ما يعتقده سكان تهامة عند حضورهم لعاصمة الصيف في الحجاز هروبًا وترويحًا من لفح الحر والرطوبة على ساحل البحر الأحمر.

وقد حدثني ذات مرة السيد حسن الإدريسي الذي جاء للاستجمام في الطائف، وكان ضيفًا على الملك وكان بعد أن ضُمت وهاد عسير إلى المملكة قد هرب من برد منطقته إلى طقس الطائف المعتدل، وجو مكة الذي تتراوح حرارته بين ١١٠ و١٢٠ درجة فهرنهايت! والطائف عبارة عن واحات غير صحراوية وطقسها بارد بارتفاعها البالغ نحو ٥٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وأهل نجد يفضلون طقسها بنهاره الحار وليله المعتدل..

وعند زيارته للحجاز كان الملك يفضل أن يقضي الصيف في الحوية التي تقل بنحو ١٠٠٠ قدم عن مرتفعات الطائف. وقد تم اختيار الحوية بعد أن أصبح من الضروري استبدال المطار القديم ليتم إنشاء مطار جديد على السهل شمال المدينة بنحو سبعة عشر كيلاً. وتجرى العمليات منذ فترة قريبة لإنشاء قصر للملك وعائلته بالحوية، وقد تم اختيار المعسكر الذي سبق أن أقام فيه الملك في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج مع بداية الصيف.

في العام ١٩٣٠م لم تكن فكرة السكن بالطائف قد تولدت بينما كانت حرارة مكة التي تُبلَّغ إلى الملك بالهاتف قد طالت السهول. واستمرت الطائف عاصمة الصيف مقراً للبلاط الملكي حتى منتصف أكتوبر رغم أن الملك أظهر عدم ارتياح لوجوده هناك.

وفي ٢٤ أكتوبر بدأ خلو البلاط بسفر الأمير سعود ومن معه إلى الرياض، وفي الصباح التالي غادرت سيارات الملك إلى مكة. وقد أتيحت لي فرصة للسفر براً إلى مكة بالسيارة الملكية. وفي مساء اليوم التالي وصلت مكة التي توثق ارتباطي بها، حيث أصبح البلاط أكثر اتساعاً في قصر الملك في المعابدة وكانت الجلسات تعقد في سطح القصر الذي رصف ببلاط وعلى جوانبه الثلاثة مقاعد مطرزة تكسوها القطيفة ومساند على مسافات متقاربة. وتوجد لمبه للإضاءة ومروحة كهربائية وهاتف في الركن الذي يجلس عنده الملك. ويجلس في الجهة المقابلة للملك قارئ القرآن الذي يتلو آيات قرآنية، ويجلس جمع غفير من الشخصيات والمسؤولين على المقاعد في صفوف حول الساحة مع وجود مسافة على الجانبين بين الملك وأقرب الناس إليه. ويجلس الحراس على الأرض عند مدخل السطح، وتقدم القهوة من وقت لآخر عندما يضغط الملك على زر بجانبه، ويستمر القارئ وتتخلل قراءاته بعض التعليقات والمناقشات. وفي نهاية الجلسة هبطت إلى الطابق الأسفل حيث دعاني سكرتير الملك وقادني لحضور الجلسة الخاصة، وكان جمعاً صغيراً لا يتعدى الستة أفراد بحضور الملك، حيث قدم لنا عشاء من الرمان والشمام، وكان ذلك ختام الجلسة حين عاد الملك لسكنه الخاص وانصرف الجميع إلى مساكنهم.

كانت جلسات البلاط الصباحية وجلسات الظهيرة تعقد في بهو واسع تسنده ثلاثة أعمدة كبيرة عند المحور الرئيس، والأعمدة مكونة من حجارة صغيرة ومغطاة بالقطيفة المطلية بلون الرخام أو الجرانيت، وتصطف المقاعد على جوانب الغرفة الثلاث. وفي الركن وضع عرش الملك مع مرفقاته، وفي الجانب الرابع من الغرفة يجلس الحرس على الأرضية على سجاد إيراني فاخر. وهناك غرفة صغيرة في الطابق الأرضي بمفارش وستائر بلون الورد يخلد إليها الملك دائمًا لجلساته الخاصة أو شبه الخاصة حين يكون بعيداً عن داره. وكان في بعض الأحيان يعمد إلى مكتب السيد يوسف ياسين لقضاء أمر سياسي أو آخر ذي طبيعة سرية.

إن حياة البلاط وسيرته هنا لا تختلف عن مثيلتها في الطائف، غير أن مشكلات المدينة وأحيائها المختلفة شغلت الملك وفرضت على العاملين ساعات عمل الطويلة. في بعض الأحيان كان الملك يدعو بعضنا في بعض المناسبات للغداء معه في قسمه الخاص في القصر المعروف ببيت السقاف (الذي أخذ اسمه من مالكه السابق) والذي يدار الآن بطريقة قصر شبرا. وكان بيت السقاف نواة قصر استمر في التوسع، وشملت الأقسام الخاصة فيه شقق عامة في نهاية ممر طويل، وبه غرف عديدة مغلقة الأبواب تقود إلى القسم الملكي الذي تقع خلفه شقق زوجات الملك. وكان مجلس الملك مفروشًا بصورة مبالغ فيها من الفخامة والسجاد الفاخر وكذلك المساند والفرش مع وجود منضدة عليها مراءات على السطح والجوانب ولوازم أخرى تمثل عنصراً فاخراً وكراسي جلوس مغطاة بالمخمل والقطيفة الفاخرة. وكان

الغداء يقدم في غرفة مجاورة حيث يرافقنا بعض أطفال الملك الذين يتميّز معظمهم بالوسامة وسيصبحون رجالاً وسيمين. وبعد الغداء ترش أيدينا بماء الورد ثم ينصرف الجميع بعد عدة جولات من القهوة.

وبعد جلسة العصر يخرج الملك بالسيارة إلى الهواء الطلق وخلفه الركب. وذات مرة وصلنا منى وعرفات حتى نبع عين زبيدة حيث كان يجري تنظيف مجرى النبع، وهذا النبع هو مصدر مياه الشرب لمكه المكرمة، إذ ينبع من جبال تقع غرب الطائف، هو نبع قديم أدت وفرة المياه فيه إلى أن تصبح مكة مركزاً تجاريًا مهمًا ومركزاً رئيسا منذ أيام الجاهلية، وتجري المياه حاليًا في مجاري صخرية بفتحات على مسافات متباعدة تسمح بتنظيف المجرى. والعين تنسب إلى زوج هارون الرشيد، وبعد انتشار الوهابية تم كشف العين بعد سنوات من الإهمال، بعد أن أضملحت وشح تدفق المياه منها، مما أثر سلبًا على وارد مكة من المياه ووراد عرفات. وقد كشف مصدر العين على السطح فأمر الملك تنظيفها دوريًا وبصورة منتظمه بدءاً من مكة طلوعًا إلى مصدرها. وكان العمال في ذلك الحين قد قطعوا نصف المشوار وبلغ وادي نعمان حيث توقفنا ليقوم الملك بتفقد سير العمل، وكان قد تم حفر حفرة بلغ عمقها نحو ١٠٠ قدم، وجدنا فيها حفرة التنظيف القديمة، أدى جريان الوادي لأكثر من ألف عام إلى تكوين رواسب بلغ سمكها نحو ١٠٠ قدم بواقع ١٠ أقدام لكل قرن من الزمان. وقد جعل هذا من الصعب تتبع مجرى النبع إلى مصدره، وحسب علمي لم تجر أية محاولات خلال هذه العمليات لتتبع المجرى بوسيلة سوى العمل على حفر حفر عميقة لتمديد مساره الأصل

وحفر التنظيف. وكلما وجدوا حفرة للتنظيف أعادوا تشيدها حتى تبلغ السطح الحالي، ثم يحفر بين كل حفرتين وتزال الرواسب وهكذا. وفي وقت لاحق تم إنجاز العمل وتدفقت المياه إلا أن زيادة الحدائق في ضواحي مكة أدى إلى نقص واضح في حاجة السكان والحجيج إلى المياه.

وتم إصلاح مجاري العيون الأخرى القديمة لزيادة مخزون المياه، وقد احتفل المواطنون بزيارة الملك بوليمة على النمط النجدي حيث وضعت كميات من اللحم والأرز كانت كافية لإطعام جيش. وبعد أيام قليلة وعلى شرف صهر الملك الشيخ أحمد السديري والشيخ عبدالله بن بليهد إمام مسجد حائل وخبير طرق السيارات في البرية في تلك الأيام، إلى جانب كونه أحد العارفين بطلمبات الري، وقد تمَّ تقديم وليمة من قبل الملك على طريقة الحجاز بالسميط. وملأت الوليمة ثلاث طاولات طويلة شغلت وسط البهو العام، وضعت كراسي تكفي لمئة ضيف على حواف الطاولات. وتجمهر الخدام في الوسط يقدمون خدماتهم للضيوف ويقطعون اللحم من الخراف لتوزيعها، والخراف موزعة على أكوام من الأرز على مسافات متقاربة على الطاولات.

لقد انتقد الأوربيون كثيراً مثل هذه الولائم السخية لأنهم اعتادوا على الأكل بشكل مقنن وللضيوف المدعوين فقط؛ ولكن في الجزيرة لا تسير الأمور على منوال الغرب، بل هي تختلف تمامًا حيث تقدم الوجبات السخية للضيوف الذين لا تدهشهم وفرة الطعام الممدد أمامهم وهم يجتمعون حوله في جماعات غير كبيرة، ويبقى البعض من غير المدعويين رجالاً ونساءً وأطفالاً على أبواب القصر لحمل بقايا الطعام حتى آخر حبة أرز إلى منازلهم.

أما الملك نفسه فلم يكن أكولاً حتى في شبابه، وبتقدم العمر ومرور السنين قلّت شهيته للحد الذي يستغرب فيه الإنسان كيف يكفي ما يأكله حاجة جسمه، وفي مثل هذه الحفلات لا يذهب إلى أكثر من تناول قطعة خبز مبللة في الحساء، بينما عينه اليقظة تنظر حول المائدة ليرى إن كان ضيوفه سعداء بالوليمة وحتى يطمئن بأنهم جميعًا قد شبعوا.

بعدها ينهض الملك لغسل فمه ويده ويبقى في خدمته أحد الحراس أو الخدام المتواجد دائمًا بجانبه يحمل العطر والصابون والمنشفة، وفي بعض الأحيان إذا وصل ضيف متأخرًا للوليمة ولم يطل الجلوس على المائدة حثه الملك للجلوس والأكل حتى يشبع، وقد يأمر شخصًا آخر للجلوس بجانب الضيف المتأخر ليطمئن أنه طُعم حتى شبع. وكما عُرف عن الملك فإن الصوم لم يكن صعبًا عليه وكان إذا شبع قال إنه سيصوم الأربعة أيام القادمة، وكأنه يعوض عن شبعه. وقد قضى أيامًا عديدة، بلغت تسعة عشر يومًا، كانت قضاءً لأيام في رمضان مضت وهو يحارب فيصل الدويش في الميدان عندما تآمر مع نفر على الملك. والصوم في السفر ليس واجبًا ولا مندوبًا، فإن كان المسلم في معارك جاز له الفطر والقضاء قبل دخول رمضان الآخر الذي سيحل في ٢١/١/١٩٣١م.

دخلت ذات يوم على الملك وهو ينظر جريمة قتل بشعة ومعه ثلاثة شيوخ ومهدي بك مدير عام الشرطة وهو عراقي دخل خدمة الملك قبل عامين وكان أحد كفاءات الحكومة المرموقين. وكانت جريمة القتل قد حدثت يوم الخميس ولكن أهل القتيل لم يبلغوا الشرطة بفقده إلا في يوم الأحد! وعندها سأل

مهدي عن نوع رفاق هذا الشخص المقتول ووجد ابن ثمانية عشر منهم وهو شاب قيل إنه ذهب إلى جدة في عملية تجارية. وتم اعتقاله وأحضر أمام مهدي مدير الشرطة الذي استطاع بحنكته استخراج كل القصة من الشاب. وتم اعتقال باقي رفاقه وتم نبش جثة الضحية من أسفل أرضية غرفة خراب في منزل مجاور. سمع الملك الحادثة وقضى يوم الخميس بالقصاص، وتم تنفيذه يوم الجمعة بعد الصلاة على الشبان الثلاثة أي بعد ثمانية أيام فقط من وقوع الجريمة. وتبين أن الأمر كان فيه لواط بين الشبان الثلاثة والقتيل استمر طويلاً وتخلله شرب المسكر. وفي يوم تشاجروا واتفق الثلاثة على قتل الضحية وأسكروه بشدة وقتلوه. وعندما سمع الملك ذلك قال "اقتلوهم، به وبالسكر واللواط. إنهم يستحقون الحرق أحياءً. نفذوا فيهم القتل غداً بضرب أعناقهم أمام الناس أمام الحميدية (رئاسة الحكومة) بعد صلاة الجمعة وأعلنوا للناس أن من يساهم أو يتستر على مثل هذه الأفعال البشعة سوف يقع تحت طائلة الشرع"، ثم قال لمهدي مدير الشرطة: "أنت المسؤول شخصيًا للقبض على مثل هؤلاء وبسرعة وحزم". ولم يكن مهدي بحاجة لتوجيهات الملك.

ذكر لي مهدي أنه خلال سبع سنوات لم تحدث سوى نحو ثلاث وعشرين جريمة قتل، وأن جميع الجناة، عدا اثنين فقط، قد تم القبض عليهم وإدانتهم وقتلهم قصاصًا. وفي جريمة الشبان الثلاثة أوكل الملك دوره لنجله الأمير فيصل نائبه على الحجاز ليشهد القصاص أو القتل، وبعد أن غادر الملك المسجد بعد نهاية صلاة الجمعة جلس الأمير فيصل في مقعده عند أحد النوافذ في غرفة المجلس في الطابق الأول بمبنى الحميدية وحوله كبار المسؤولين

والشخصيات. كان الشارع الضيق بين هذا المبنى والحرم قد امتلأ بكامل سعته بجماهير غفيرة، وامتلأت الأسقف المجاورة بالناس، وشمل ذلك سقف المسجد، واصطف رجال الشرطة أمام الحميدية. وبعد برهة قصيرة أوتي بالشبان الثلاثة تحت الحراسة ورؤوسهم حاسرة وأيديهم مربوطة خلفهم وركعوا على الأرض على مسافات مواجهين جدار المسجد، وكانوا مجهدين ولا يبدو عليهم الجزع من مصيرهم القادم، وفي السجن الذي أتوا منه رفضوا إعطاء الشرطة أية معلومات عن رفاق آخرين لهم أو شركاء في الجريمة، اقترفوا معهم جرائمهم أو مارسوا فعالهم التي قادتهم إلى ذلك المصير. وفي ثوانٍ بعد ذلك كان الرأس الأول قد طار مدحرجًا في التراب وطاح جسمه إلى الأمام في الدماء التي فاضت من عنقه، ومد الثاني عنقه استعدادًا لمصيره وعند الضربة قفز ولم تنقطع عنقه ثم كرر السياف ضربته. وبعده بثواني كانت الرأس الثالثة قد قُطعت وفاض الدم وملأ الأرض وانتهى تنفيذ القتل وبدأت الشرطة في إخلاء الجثث الثلاثة. ووضعوا كل رأس عند صاحبه وجمعوها عند حافة الحميدية حيث بقوا للمشاهدين حتى مالت الشمس وظلوا عبرة للناظرين. وكانت العملية سريعة ومتقنة ولم يحدث ضجيج أو حرج غير أن الزحام والاحتكاك كان جمًا. وجلس الأمير فيصل لبعض الوقت بعد التنفيذ حتى جاء مولاه سعيد السياف ليبلغه أن كل شيء قد انتهى "بارك الله فيك" قالها الأمير فيصل له وقال لي: "إنه لمن الأمر الحسن شكرهم على قيامهم بواجبهم ليتقنوه في المرة القادمة".

ومهما يقال عن تطبيق الحدود والقصاص في العالم فإنه لا يرتاب أحد في المملكة بأنه الحق، والاعتقاد السائد عند العرب هو أن القصاص والحدود فيها حياة المجتمع[1]، لذا يجب تطبيقه كما هو، وإن منع الجريمة يكمن في سرعة اكتشافها وسرعة عقوبة الجاني. والمملكة تمثل أقل الدول في نسبة الجريمة، وهي تعطي الأنموذج في الأمن، وليس كما في باقي دول العالم حيث الإجراءات الجنائية المطولة والجرائم المتكررة التي تنتهي بعدم تطبيق النظام ودخول العاطفة في الحكم النهائي.

وعلى أية حال فإنه، ولمدة سنوات حين تقاعد مهدي بك من مكتب الشرطة بعد أن تدهورت صحته بعد الحرب العالمية الثانية بقليل، لم تكن المملكة وخاصة الحجاز مكانًا آمنًا للمجرمين، ولم تكن هناك أية رحمة لمرتكبي حوادث الطرق الذين كانوا يسرعون بالسيارات ويشكلون خطرًا على المواطنين، مما أدى إلى تدني مثل هذه الجرائم في المملكة مقارنة بالعالم الأوربي.

وكانت هناك حالات قليلة مميتة وكان لأهل القتيل في مثل هذه الحوادث حق القصاص من السائق المتسبب في الوفاة أو قبول الدية على نظام الدولة، بكامل حقهم. قد يبدو هذا غريبًا لقضاة بعض دول أوربا ولكنه منع الحوادث في الجزيرة بنجاح ملحوظ. وقد يظن البعض أن ازدحام المرور في مكة ليس بكثافة الدول الأخرى أو ازدحامها. ولكن من يظن ذلك عليه أن يقود سيارة في مكة وسط زحام الحجيج الذين يملؤون الشوارع والأزقة الضيقة وليرى

---

(١) ولعل هذا مما أمر به الإسلام، ونصت عليه آيات القصاص: قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٧٩].

مدى المخاطر التي تواجهه سيعرف عندها أن المرور للشخص هناك كحال طيور الحرم فمن سلم في الزحام يكون أكثر أمانًا في شوارع المدينة الكبيرة وطرقها. إن نظام الشرطة الصارم الذي وضعه مهدي بك بدعم وثقة الملك قد تدهور بعد تقاعده، ولكن ما زالت الطرقات والشوارع في الحجاز آمنة للمشاة وطلاب المدارس. وكان المجرمون على علم بما فعله مهدي في منع الجريمة، وما زالوا حتى الآن، وأنا لا أقول أن المملكة أرض خالية من الجريمة ولكن ذئاب الجريمة قد صاروا حملانًا مخافة الاصطدام بأحكام الشريعة الرادعة.

في بداية نوفمبر اهتم الناس بما نشر عن السياسة البريطانية بشأن فلسطين على أثر تقرير (شو) عن حادث حائط المبكى في العام المنصرم؛ لأنه لم يشمل فكرة إنشاء حكومة فلسطينية مسؤولة، وبهذا ضاعت فرصة وجود دولة فلسطينية. ولكن التقرير عرض حقوقاً متساوية لليهود والفلسطينيين تحت السلطة البريطانية بتكوين مجلس مشترك من كلا الطرفين يتم تعيين نصفه وينتخب النصف الآخر. وكان اليهود قد رفضوا الفكرة سلفًا. وقد استقال وايزمان من المجلس التنفيذي الصهيوني احتجاجًا على مشروع لتجميد فكرة «الوطن القومي» لصالح مشروع التقسيم بين العرب واليهود. ولم يصرح العرب بشيء بعد؛ ولكنهم كانوا يتشككون في الأمر. وكان ابن سعود قد احتار في الأمر، وفي حديث خاص معه اقترحت عليه كأحد قادة العرب بأن ينصح عرب فلسطين بقبول المشروع. وكان جوابه يمثل منحاه الذي ظل نهجًا إلى يومنا هذا ومكنه من دور قيادي في الشؤون العربية تميز به وقاد إلى سياسة المملكة الحالية، وهو عدم تدخله في الشؤون الخاصة لغيره في كل

العالم العربي خارج مملكته، مما أعطى المملكة العربية السعودية مكانة وعضوية مرموقة في العالم العربي. وكانت سياسته كما حدثني في تلك المناسبة هي عدم التدخل في الخلافات السياسية بين سكان الأراضي الخاضعة للانتداب، وذكر لي أن ما يمكنه عمله هو أن ينتظر حتى تطلب منه الحكومة البريطانية حث الفلسطينيين باستخدام كلمته المسموعة لديهم لقبول المشاريع المقترحة والتي كانت تمثل أفضل مما قدم سابقًا. وهو بذلك لن يربح شيئًا، بل قد يفقد جزءاً من مكانته بمثل هذه المبادرات السياسية أو العسكرية. وكان يميل إلى أن يؤدي دوراً وسطًا، إذ لم يكن يسعى إلى الاحتكاك بالبريطانيين أو القوى الكبرى في العالم، تمامًا كما كان يتفادى انتقادات العرب والصحف العربية باتزانه في تناول مثل هذه الأمور. وكانت أزمة اليمن عام ١٩٣٤م التي أجبرته على ما كان، ولكنه بصفة عامة لم يكن ميالاً إلى قبض السراب؛ ولذا أراد ألا يكون له دور في تقرير مصير الفلسطينيين. ولكنه كان حزينًا في سره من عدم دعوة الحكومة البريطانية له للمساهمة في حل القضية. وكان وقتها يجري مباحثات لعقد معاهدة صداقة مع الحكومة الألمانية، وفي اليوم السابق لنشرها في جريدة "أم القرى" جريدة مكة الأسبوعية، آنذاك، وكان محررها فلسطيني يُدعى رشدي ملحس تحت إشراف يوسف ياسين، أسر لي الملك بأنه انزعج حقًا من موقف بريطانيا الرسمي نحوه. وذكر أنه أعطى بريطانيا امتيازات في كل الجبهات في مسقط والكويت والبحرين وفي العراق وعبر الأراضي الأردنية؛ ولذا لم يطق برود البريطانيين نحوه. وكان يتعجب في داخله عما إن كانت بريطانيا تعمل ضد

مصالحه. وقد ظهر اسمه في الإعلام رغم أنه لم يتدخل في المفاوضات التي تعلقت بتوصيات مؤتمر مغلق في باريس أوصى بأن تقوم بريطانيا والقوى الأخرى على عرقلة الحج للحجيج وقد نصحته دائمًا وكررت له آنذاك بأنه يجب ألا يلوم سوى نفسه لأنه لم يحدث أن وضع نفسه وتطلعاته أمام العالم وأمام بريطانيا خاصة. وآنذاك أصبح فؤاد وكيلاً للخارجية وسكن جدة بصفة دائمة، ولكن تمسك الملك بالسياسة الخارجية بكل تفاصيلها جعلت فؤاداً يتردد كثيراً على مكة مما جعل سير أندرو رايان، الوزير البريطاني المفوض المقيم بجدة منذ عام ١٩٣٠م، يقول بأن كل الدول ممثلة في جدة ما عدا المملكة العربية السعودية.

كانت الانتخابات القادمة في العراق ومصر قد أصبحت مادة للحديث في البلاط الملكي. وفي العراق تمَّ ترتيب الأمر بحيث يقبل البرلمان القادم المنتخب المعاهدة العراقية البريطانية. أما في مصر فيقال بأن القانون الجديد يشمل موقف الوفد بمقاطعة الانتخابات، وبذا أجَّلت الاتفاقية المصرية البريطانية التي قصد منها الحفاظ على مصالح بريطانيا في مصر المستقلة، إلا أن الهدفين قد تحققا، فالعراق حققت استقلالها في حدود القيود السياسية بموجب الاتفاقية البريطانية عام ١٩٣٢م وأصبحت مرشحة للدخول في عصبة الأمم. ولكن مصر انتظرت حتى عام ١٩٣٦م حين قبل حزب الوفد باتفاقية العشرين سنة مع بريطانيا. ووقع خلاف وجدل بين حكومة الوفد وبريطانيا خلال عشر سنوات، وظلت بريطانيا محتلة لمصر والملك لم يكن سعيداً بهذه النتيجة ولكنه كان سعيداً باستقلال بلاده وإن بدى ذلك متناقضًا مع وجود جيرانه

العرب تحت الاستعمار يناضلون لنيل استقلالهم. ولم يكن هذا الأمر غريبًا؛ فالملك فؤاد كان يريد اعتلاء كرسي الخلافة الشاغر خلال سنوات فتور العلاقات بينه وبين المملكة خاصة بعد حادثة المحمل عام ١٩٢٦م. وبقيت الجفوة بين مصر والمملكة حتى رجوع الوفد إلى السلطة في عام ١٩٣٦م، حين طُوي الماضي وبدأت مرحلة صداقة جديدة وتعاون اقتصادي وسياسي استمر حتى هذا اليوم كظاهرة في السياسة العربية الحديثة على نقيض أحلام الهاشميين في مشروع سوريا الكبرى و«الهلال الخصيب».

وهناك مسألة أخرى شغلت الملك وهي موضوع الحدود الجنوبية للأردن غير المرسومة وتجميد احتجاجاته واحتجاجاته المضادة في شأن البدو الذين يغيرون عبر الحدود على المملكة من وقت لآخر في السنوات الماضية. وعندما وصل الملك إلى مكة من الطائف وصله وفد من قبائل البادية من الحويطات من حدود الأردن الجنوبية برئاسة عودة بن زعل وهو ابن عم عودة أبو تايه المعروف. وكان عودة بن زعل رجلاً وسيمًا أسمر اللون ذا عينين براقتين وأنف شامخ سامي وبسمة تخفي وراءها القدرة على الشدة. ناقش معه الملك عدة أمور مشتركة وبجانبه فؤاد حمزة لإعطائه تفاصيل مراسلات تمت مؤخراً مع السلطات البريطانية في موضوع الحدود. وعند أقدام الملك جلس كاتب أملى عليه الملك رسالتين إحداها منه إلى ضيفه والأخرى رد الضيف إلى الملك. وكانت الخطابات موقعة من الأطراف المعنية حسب الاتفاقية التي تمت بينهما. وفيما يختص بحسابات الماضي فقد ذكر الملك بأنه طلب من الحكومة البريطانية إصدار حكمها في كل الادعاءات دون أن يكترث إن كانوا قد قضوا

لصالحه أم لا؟! وأنه سيقبل الحكم مهما كان. ولم يكن الملك يريد شيئًا من عرب الحويطات سوى وقف غاراتهم على حدود المملكة. وطلب منهم أن يعلموا أنه لا يمانع في دخولهم أرض المملكة للرعي أو لأي غرض آخر. وعندها يكون تحت طائلة الشرع في المملكة وعليهم دفع الضرائب ونحوها، وإذا راعوا هذه القواعد فلا بأس عليهم، ولكن إذا ارتكبوا جرمًا في المستقبل فإن الملك سوف لن يدعو الحكومة البريطانية للحكم بينهم بل سيحكم بكتاب الله والسيف.

وبعد هذه المقابلة الناجحة عاد الملك إلى مكتب يوسف ياسين. وفي جلسة شبه خاصة تم الكشف على الملك من قبل أربعة أطباء عن سبب شحوبه في الفترة الأخيرة. وذكر بأنه طلب الحجام في عصر ذلك اليوم، فقد جرت العادة أن تتم عملية الحجام له مرتين في كل عام. ويتم ذلك بكشط الجلد عند مؤخرة الرأس والكعب ومص الدم وسحبه إلى سطح الجلد ثم إلى الخارج. والعرب عمومًا لديهم ميل طبيعي للاستشفاء بهذه الطريقة، ولم يكن الملك يشكل استثناءً عن ذلك. وكان أحيانًا في وسط جلساته يطلب طبيبه ليقدم له دواء للصداع أو الحموضة التي كانت تعاوده كثيرًا، أو لغسل أذنه أو عينه ثم يجففها بقطنة يرمي بها خلف عرشه على الأرض. كان الملك يُعالج بالكهرباء أحيانًا من مولد نقال تسري فيه الطاقة بالقدر المطلوب خلال جسمه على مرأى من الحضور. وفي بعض المرات حين يريد المرح كان يطلب من أحد شيوخ البدو الذين يثق بهم حمل مقابض الكهرباء، ثم يصل التيار فيندفع البدوي صارخًا وراميًا بالمقابض من أثر الصدمة ويضج البلاط بالضحك.

وعند بدء استخدام الكهرباء كان الملك يلعب مثل هذه الفكاهات برمي بعض الريالات في مياه في إناء عميق ثم يطلب منهم سحبها وسط تيار ضعيف.

كان الملك خلال تواجده في مكة يزور الحرم غالبًا بعد العصر ويطوف تطوعًا ويحضر صلاة المغرب ويترك حذاءه عند باب الحرم ويدخل إلى المسجد محاطًا بحرسه ومواليه وكلهم مجهزون بسيوف وخناجر وبنادق. ويسيرون معه على الأرض المرصوفة حتى باب السلام. وفي الكعبة يقبل نحوه الأغوات أو مطوفو الحرم ويقودونه إلى الكعبة أي المطاف، وتكون الشرطة قد أخلت له مساراً هو من معه. ثم يتقدم الملك ويقبل الحجر الأسود ثم يبدأ بالطواف ببطء وتأني ويرفع يده عند الركن اليماني ويقبل الحجر الأسود كل مرة يطوف فيها. وبعد الشوط السابع يذهب إلى مقام إبراهيم ويصلي ركعتين ويجلس أمام المقام متجهًا نحو الكعبة في انتظار أذان المغرب حيث ينهض الملك ويقف خلف الإمام مباشرة عند إقامة الصلاة.

وبعد الصلاة تقدم له شربه من زمزم، قبل أن تقدمه مجموعة الموطفين وحراسه إلى سيارته. ومرة تمت دعوته لوليمة في دار عمدة مكة وكان اسمه يوسف قطان وهو من عائلة تجارية كبيرة يرأسها. وانطلقت سيارته في شوارع مكة الضيقة وسط الظلام الذي بدأ لتوه. ووقف على جانبي الشارع شبيبة يحملون لمبات مضيئة وفي أيديهم مباخر يحترق فيها العود وتفوح الرائحة. وكانت دار العمدة قد امتلأت بالناس واكتظت حتى الاختناق. جاء ومعهم ضيوف الملك الذين قدموا لمقابلته. ومن حسن الحظ أن تم تقديم العشاء في سطح واسع فوق الصالون بطريقة السميط الحجازية. وضعت والطاولات

لتشكل دائرة مفتوحة من جانب واحد والخدام في الوسط يقدمون الطعام الشهي للزوار الذين لم يندهشوا للسخاء الذي انعكس أمامهم في الموائد. وتبع العشاء تقديم القهوة في قاعة واسعة في الأسفل حيث ألقى الشاعر أحمد الغزاوي الذي يماثل كولي كبير في درجته الشعرية، قصيدة بهذه المناسبة. ثم أنشد ثلاثة صبية قصيدة بلحن جميل تتحدث عن السيف والقلم، وكان ذلك لسان حال صبية المملكة وهم يتحدثون بأسلوبهم إلى كبارهم. وبهذا أحسسنا بأن المملكة الآن على أعتاب العدالة الاجتماعية والإصلاح بعد الفتوحات العسكرية الطويلة والانتصارات التي حققها الملك وحازت تأييد الجماهير وإعجابهم. وكانت الأنشودة جيدة الكلمات والأداء، وقد استمتع بها الجميع. وكذلك أنشودة تلاميذ المدرسة التي ألقيت عند وصول الملك فقد حازت على إعجاب الحضور ومدحهم.

إلا أن الملك لم يكن راضيًا بوجه عام عن أهل مكة. كان جل وقت الملك وجهده في تلك الأيام منصبًا على تحسين إدارة الحجاج وأحوالهم خاصة استقبال الحجيج القادمين إلى جدة وعودتهم بسلام من جدة أو ينبع إلى ديارهم. لقد كان مطوفو مكة (أشبه بوكلاء السفر والسياحة) حريصين على الكسب أكثر من حرصهم على راحة الحجاج الذين كانوا يساقون من مكان إلى آخر كالسوام بما يضمن راحة وكسب شركات النقل وملاك الجمال الناقلة دون اعتبار لراحة الحجيج؛ لذا كان لابد من تدخل الحكومة السعودية لتحديد مقدار أرباحهم واستغلالهم للحجاج إلى حدود معقولة. وعلى عجل تم تكوين لجنة من المسؤولين والمواطنين لاستلام كل شكوى يقدمها الحجيج

للبت فيها ولضمان تفعيل آلية لإدارة الحج بسلاسة ويسر. وكان اهتمام الملك الشخصي في ذلك كله ضمان أعلى ناتج للكفاءة في إدارة الحج. وفي أول موسم حج بعد ذلك رأيته يجلس على كرسيه وبيده الهاتف يتصل بكل الإدارات وبفريق عسكري كان على رأس إدارة الحج ويتلقى التقارير من كل الإدارات ويوجه ويصدر الأوامر لمعالجة كل ما يطرأ من مشكلات.

وقد أبدى الملك اهتماماً بالحلف المقترح بين فرنسا وألمانيا الذي ظهر في ذلك المنعطف باقتراح أمريكي بتأجيل دفع ديون ألمانيا لتستطيع استعادة استقرارها الاقتصادي وتحسنه. وأظهر اهتماماً بالسياسة الخارجية عندما أوفد ابنه الأمير فيصل في جولة أوروبية في صيف عام ١٩٣١م للعلاج ولمناقشة بعض الأمور في بريطانيا وفرنسا، غير أن السبب الرئيس للزيارة هو الإلمام برأي أوربا في الشؤون الشرقية، بمناقشة المسؤولين في بريطانيا وفرنسا وكذلك في تركيا وروسيا.

بعدها كانت المشاورات جارية لإيفاد مجموعة أشخاص مناسبين إلى رئاسة شركة ماركوني في شلمزفورد ببريطانيا ليتدربوا كفنيين لتشغيل الراديو (اللاسكي). وكان وزير المالية على اتصال دائم بالملك بشأن معدات اللاسكي والمستودعات والجمال النقالة التي تحتاج لها قوات نجد العسكرية، وهم ٤٠٠ من الرجال الذين سيرسلون إلى عسير للعمل على استقرار الحكم كما هو الحال في إدارة مناطق الحجاز. وكانت منطقة عسير قد نالت وضعاً اسمياً كمحمية تحت الإدارة الإدريسية منذ عام ١٩٢٦م، إلا أن اتفاقاً قد تم مع السيد حسن نائب رئيس العائلة لإنهاء هذا الوضع لصالح نظام إدارة أفضل

خاصة فيما يتعلق بإدارة الموانى وجمع الضرائب الجمركية والتي حُددت تحت حكم الإدريسي بثمانية بالمائة مجازة بالشريعة الإسلامية، بينما وصلت إلى ٢٠٪ وأكثر في جدة بالنسبة لبعض البضائع. مثل هذا الفارق الكبير إضافة إلى صعوبة ضبط الحدود أدى إلى تهريب كثير من البضائع إلى الحجاز، وقد استدعي الشيخ عبدالوهاب أبو ملحة مدير إيرادات عسير، وهو رجل مقتدر من خميس مشيط إلى مكة، حيث اجتمع به عبدالله بن سليمان وناقش معه مهامه الجديدة في عسير، موضحاً أن أية محاولة لغرض تعرفة جدة العالية على الجمارك في عسير سيتسبب في تهريب البضائع على حدود اليمن. وبذا تم فرض ٩٪ فقط على واردات موانى عسير على أن يتم دفع ١١٪ رسوم على أية بضاعة يعاد تصديرها إلى الحجاز، وكان واجب الشيخ عبدالوهاب هو اتخاذ التدابير العملية اللازمة لضمان تنفيذ النظام الجديد بكفاءة.

وعندما يقدم الملك على الصوم، كنا ننتظر في القصر لمشاركته صلاة المغرب ثم نتناول الإفطار في غرفة جلوسه ويكون معنا الأطفال. وهي تجربة جميلة؛ لأن الملك كان أباً ممتازاً، وكان في تواجده العام والخاص رحيماً ومداعباً للأطفال من العائلة. وخلال بعض الجلسات العامة يأتي طفل صغير ويمشي على طول الممر دون أي حرج أو خجل ليبلغ رسالة من إحدى الأمهات أو ليجلس على الكرسي المجاور للعرش ويلعب بهاتف الملك أو زر استدعاء الخدام أو يتناول أي شيء يجده سهل الالتقاط.

وكانت جلساتنا تستمر أحياناً حتى عشاء الفاكهة أو القراءة. وفي إحدى المرات قدمت فاكهة الموز وقال الملك بأنه لم يطعمه في حياته من قبل،

ونصحناه بأكله، فتناول واحدة، تناول منها قليلاً ثم وضعها. وقال: "هل صحيح إن المحبون في أوربا يعضون بعضهم؟" ولاحظ عندها تغيراً في وجه أحد أطبائه. وقد يظن الملك أنه يفعل ذلك، ولكن لا أظن، فالحجاز بسكانه الحضر والوجود التركي الطويل ما كان ليصل مرحلة الرفاهية هذه. وكانت نظرة نجد لأوجه الحياة العصرية والرفاهية، على أي حال، غير معاصرة. وما كان سؤال الملك عن الحب والمحبين إلا فضولاً عن عادات عالم غير مسلم.

وكان يكسر رتابة البلاط الملكي ببعض الرحلات خلافًا لتلك التي كانت تسبق مغيب الشمس إلى البر. وفي إحدى الرحلات خرجنا إلى بئر الجعرانة والتنعيم قرب مكة، وهما من مواضع مواقيت الإحرام. وكان الحجاج وأهل مكة يستخدمون آنذاك الحمير أو السيارات التي ظهرت لتوها، للوصول للبئر والاستحمام والإحرام قبل التوجه إلى الحرم للطواف والسعي. وكانت البئر شهيرة بعذوبة مياهها المخزونة في طبقات رمال الجرانيت في ذلك الوادي، والملك، وهو خبير في أنواع المياه وجودتها، كان قد قرر ألا يشرب مياهًا غيرها طيلة وجوده في مكة. وكانت سيارات الخزانات تذهب يوميًا لجلب المياه له ولعائلاته. وفي نجد كان يشرب من بئر واحدة هي الحسي على وادي حنيفة الذي يقع على مسافة بضعة أميال من الرياض. وكانت مياه هذه البئر تنحدر من حجر رملي يحوي ترسبات جيرية نتجت عن صخور جيرية في طبقات عليا. وكان الملك خبيراً في أمور الصحة وكان يعتقد أن تلك الآبار هي فقط التي تحوى مياه صحية في المملكة. وذكر الملك أن والده الذي توفي عام ١٩٢٨م كان عارفًا بطب اليونان الذين لم يكن طبهم أقل مستوى من طب

أوروبا. وكان هناك طبيب مشهور في الأسرة هو تركي بن سعود[1]، أحد أجداد الملك. وكان قد قسم الناس من حيث البنية والصحة إلى أربعة أقسام: "دموي" والثاني "سوداوي" والثالث "بلغمي" والرابع "صفراوي" ويعد نفسه "صفراويًا" واكتشف بأن عصارة الصبَّار التي تستخلص من تلك الشجرة تعالج كل مشكلات البطن، كما تعالج الجروح والقروح الخارجية. وكان الملك ملتزمًا بالحجام مفضلاً أيام ٢٥ أو ٢٧ أو ٢٩ من الشهر القمري، إذ إن لمراحل القمر أثرها على دم الآدمي تمامًا كما تؤثر على المد والجزر في البحر. كان ذلك معلومًا للعرب في الجزيرة خاصة في نجد. كذلك فإن العلاج بالقرآن بقارئ محترف يعالج المرض، وهو ممارسة طبية معروفة، وذكر لي الملك بأن ذلك علاج ناجع. وبالرغم من إيمان الملك بالطرق التقليدية هذه للعلاج كان قصره مليئًا بالأدوية والعقاقير الحديثة للعلاج الواردة من الغرب. وفي بعض الأحيان كانت موازنة العلاج الحديث للدولة تبلغ ٢٤٠٠٠ جنيه ذهباً دون نفقات الطب الوقائي، وكان عدد الأطباء العاملين بالطب الحديث والذين سمح لهم بفتح عيادات خاصة يبلغ آنذاك عشرين طبيبًا. وكان بمستشفى مكة خمسة أطباء وعدد من النسوة المؤهلات لعلاج النساء المرضى، وقد تضاعفت هذه الأعداد ثلاثة أو أربعة مرات منذ ذلك الوقت. وانتشر الأطباء في أنحاء المملكة، وإن كان هناك بعض المناطق خارج خدمات العلاج وكان الأطباء المصريون والسوريون يفضلون العمل في المدن باعتبار كونها أفضل لعياداتهم الخاصة.

---

(١) الصحيح أنه الإمام تركي بن عبدالله، المتوفى عام ١٢٤٩هـ.

رحلة أخرى قام بها الملك هي تلك التي قام بها بصحبة حاشيته إلى واحة مضيق أو واحة وادي الليمون وسميت بوادي الليمون لما فيها من شجر الليمون في إحدى أجمل وديان الحجاز. وكنا قد بدأنا الرحلة في الصباح الباكر وكان الملك مسروراً وروحه المعنوية عالية للخروج من رتابة اليوم وحياة المدينة. وكان ذلك لليلة واحدة لا يسمح الوقت بغيرها. وكان مضيفاه هما الشيخ عبدالله أبو يابس والشيخ علي بن حسين من أشراف بني الحارث الذين خرجا على الملك حسين وقدما الدعم للوهابيين في غزو عام ١٩٢٤ / ١٩٢٥م وبذا كانا مقربين من الملك في البلاط الملكي. وكانت مثل هذه اللقاءات نوعاً من إظهار الدعم.

وفي المجلس كانت تفوح رائحة القهوة قبل الوليمة التي أعدت لنا ونالت دون شك إعجاب الملك. وجال كثير من النشطين منا في بساتين النخل والليمون، وزرنا عين بدران التي تروي كل المزارع هناك. ومنذ زيارتي الأخيرة إلى هنا عام ١٩١٧م قام مضيفونا وآخرون ببناء منازل كالقصور بدلاً من تلك البيوت البسيطة القديمة. وفي قاعة الاستقبال في دار عبدالله بن ياسين هناك نافذة كبيرة تطل على الوادي ومقسمه إلى جزأين: أحدهما أعلى من الآخر بنحو قدم ونصف القدم ويفصلهما قوس واسع على طراز معمار مكة، وقد يكون في ارتفاعها علاقة بالأعمدة الطويلة التي تحمل السقف التي يبدو أنها من إنتاج محلي أو مستورد من الشرق الأقصى. وكان الشيء المميز في الدار مصطبة واسعة تمتد على تل مسطح من مواجهة الوادي. هناك جلس الملك قبيل الغروب وانعقد مجلسه كالعادة واستقبل الزوار المحليين حتى غروب

الشمس. وبعد الصلاة ذهبنا راجلين إلى دار الشيخ علي بن حسين في تل مجاور حيث سيتناول الملك العشاء، ويمضي الليل. وقدم العشاء في دكة أو مصطبة كبيرة أمام الدار وتناولنا القهوة بالداخل في غرفة واسعة ذات فرش فاخر. وانصرف الناس تدريجياً حتى بقينا نحن أربعة مع الملك. وأثناء العشاء هطلت المطر (٢٩ نوفمبر) ثم تواصل هطولها مرات خلال الليل وكانت التلال تعلوها سحب داكنة ماطرة وكان ذلك فأل حسن لقدوم الشتاء. وكان قمر رجب في ربعه الأول قد نشر ضياءه على الوادي حيث ترى أشجار النخيل والليمون تتمايل في الوادي وتغيب أحياناً خلف التلال المطلة. ولا أدري إن كان جمال المنظر الطبيعي أم جو المطر الجميل أم غياب نساء الملك هو الذي جعله يتحدث عن النساء اللاتي أحبهن.

قال: "يكون للمسلم الحق في الجنة سبعين من الحور العين، ثم يخير في إحدى نسائه من الدنيا لتكون معه إلى الأبد". وقال: إن من نسائه ست يرجو الله أن يرافقنه في الجنة. وكان على رأس قائمة الست، أولى زوجاته على الاطلاق وكانت جميلة حسب قوله وهي بنت الفجري التي توفيت بعد ستة أشهر من زواجهما قبل ٥٦ عاماً ولن ينساها قط. وهذا فخر لأي امرأة في جزيرة العرب.

ثم تلاها بزوجه بنت الشيخ أم الأمير فيصل، وهي من سلالة الوهابيين، وتليها الثالثة الجوهرة بنت مساعد التي توفيت عام ١٩١٩م (سنة الرحمة) عندما اكتسح وباء الإنفلونزا الجزيرة وتوفي بسببها ثلاثة من أولاد الملك، منهم تركي الذي كان سيصبح ولياً للعهد. وكانت الجوهرة من عائلة الملك

وابنة عمه، وكان أخوها وهو الآن أمير حائل، قد استعاد مع الملك مدينة الرياض قبل خمسين سنة. أما رابعة زوجاته الست اللاتي أحبهن فهي حصة بنت السديري وهي معه وقتها، وقد خلفت منه أكثر من أية امرأة أخرى، وهي أم سبعة من أولاد وعدة بنات وهي من عائلة لا تزوج بناتها لغير الأمراء. وحين جئت لكتابة هذه المذكرات كنت قد نسيت اسم الخامسة. أما السادسة فلم يذكر اسمها ربما لأن النعاس قد غلب عليه. وبعد سنوات سمعت من الملك كلاماً مغايراً للحديث السابق عن عدد الزوجات المسموح لهن مرافقة أزوجاهن في الحياة الآخرة بأربعة بدلاً عن واحدة. وانقلب الأمر بأن من كانوا يحبون كلامه عن تعدد الزوجات وجدوا أنفسهم مع واحدة غيورة تستطيع حماية نفسها من التعدد. ودون ذكر أية أسباب عن تعدد زوجاته كان الملك جازماً بأن التعدد أمر مطلوب ليس للرغبة ولكن لما فيه من منافع.

وكان يذكر نجاحه وسعادة عائلاته في نجاح التعدد وتشجيعه له. ولكن الأمر الذي لم يعطه كامل الاعتبار هو تبعات التعدد الاقتصادية، فالأمر يسير بالنسبة لكل ملكة في مملكتها ودارها، حتى دون زيارة بعضهن أو وصل بعضهن، كل واحدة سعيدة في عالمها، رغم ما كن يتقاسمنه من الإماء. غير أن الأمر بخلاف ذلك في أوساط الطبقة الوسطى من المجتمع، حيث يعني التعدد عيش بعضهن على حساب البعض الآخر، دون أن تتحقق سعادة متساوية.

أما الملك فلم يكن من هم يقاسمه نساءه غير الأنس والمرح ومواضيع العائلة. ففي وضعه الملكي يجد دوماً ما يسره وينال إعجاب الجميع، ويجد

من نسائه ما يطيب له. وعلى المستوى الخاص والعام فالحياة الملكية منظمة وميسرة بكل التفاصيل. ومجريات الأمور اليومية كانت كلها تهدف لرضائه وسعادته، وإن طرأت بعض الأمور البسيطة أحيانًا. وكان الملك طليقًا حراً من أي التزام عائلي مثل: مناسبات ولادة الأطفال أو زواج، حيث يشغل وقته بعيداً في معسكر ما أو في رحلة ما عندما تقترب هذه الأحداث، وما أكثرها في العائلة، تاركًا المجال لمن تهمهم مثل هذه الأمور، والتي يتخللها دق الطبول والغناء والرقص وهي أمور كان يبغضها شخصيًا. وحتى بعد الولادة ما كان يرى الطفل إلا بعد مرور عدة أيام، بينما يزور الأم ويسأل عن صحتها ويسمع ما تريده ولا يقربها عادة حتى تقضي الأربعين يومًا التي نص عليها الإسلام.

وبهذا الحديث عن العائلة كما سمعته من الملك في تلك الليلة المقمرة في وادي الليمون سأختم هذا الفصل بانتهاء إقامة الملك في مكة والتي كادت أن ينتهي وقتها. وكان الملك يريد صيام رمضان وحضور قدوم الحجاج في مكة. ولكن كانت هناك فسحة من الوقت لزيارة سريعة إلى نجد ليقف على تقدم استتباب الأمن في الصحراء بعد ثورة الدويش في العام الماضي. وبعد عناء استطاع وزير المالية ترتيب المال والنقل للرحلة. وفي ٢٠ ديسمبر عام ١٩٣٠م سار ركب الملك بالسيارات والشاحنات خارج مكة متجهًا إلى الرياض.